درس الغنوشي في لندن

معن البياري

ليس الخبر، هذه المرّة، عن رئيس حركة النهضة، راشد الغنوشي، أنه احتفظ بموقعه رئيساً لمجلس النواب التونسي، بعد إخفاق محاولة تكتلاتٍ في المجلس، لا يداري أفرادٌ كثيرون فيها معاداتهم الثورة التونسية، سحب الثقة منه، بل الخبر أن «النهضة» أعلنت، الأسبوع الماضي، أن الغنوشي سيتبرّع، للأعمال الخيرية لمنظمة الهلال الأحمر التونسي بمبلغ 45 ألف جنيه إسترليني، قيمة التعويض المادي الذي قضت محكمة العدل العليا البريطانية في لندن بأن يُدفع له من موقع Middle East On Line، عن التشويه الذي ألحقه هذا الموقع بالغنوشي، في نشره في يوليو/ تموز 2019 مقالاً اتهم الرجل بأنه يتزّعم «واجهة إرهابية»، وأنه ينشط في دعم الإرهاب في تونس والخارج، ويتلقّى أموالاً من دولة قطر، الأمر الذي أتاح لها ممارسة تأثير غير لائق على سياسة تونس. وكان الحكم لمصلحة الغنوشي قد صدر في مايو/ أيار الماضي، والبادي أن مالك الموقع المذكور، هيثم الزبيدي، لم يعرف بعد أن بريطانيا التي يقيم فيها دولة قانون، وأن مزاولة استسهال الافتئات على الناس، والابتذال في رمي الخصوم بالإرهاب وغيره، بخفّة وزعرنة، قد يجوز التلهّي به في دولة الإمارات التي توالِيها صحيفة العرب التي يرأس الزميل ياسر الزعاترة، الصحيفة التي تجرّأت على راشد الغنوشي برميه باتهاماتٍ من عندياتها، فمضى الزعيم الإسلامي الرصين إلى القضاء البريطاني بدعوى تشهير، كسبها في عام 2013، بدفع 61 ألف جنيه إسترليني له، على سبيل التعويض في القضية. ما قد يعني أن الزبيدي لا يريد أن يرعوي، ولا يُمانع في أن يُلدغ من الجحر نفسه مرتين. وكان ظنّه، ربما، أن حذف الافتراء على الغنوشي من الموقع الإلكتروني سيُنجيه من العقوبة.

وثمّة حزمةٌ من الدروس في واقعة التقاضي هذه، أحدها أن على خصوم الإسلام السياسي، في أجهزة إعلام دول الثورات المضادّة، ومواقعها الإلكترونية وصحافاتها، في أبوظبي والقاهرة ولندن وغيرها، أن يتحرّزوا في ثرثراتهم ويحتاطوا في الخرائف التي يُشيعونها، فليس من فضيحةٍ مخزيةٍ لموقع هيثم الزبيدي الكثير من قول المحامي ماتيلد غروبو، من مكتب محامي كارتر روك الذي مثّل الغنوشي في القضية الجديدة (ثمة قضايا أخرى مرتقبة بالمناسبة)، إن الطرف الآخر فشل في تقديم دليلٍ واحدٍ على اتهاماتهم ضد حركة النهضة ورئيسها، فحكم القاضي البريطاني، ماثيو نيكلن، بالتعويض. ولأن الشيء بالشيء يُذكر، جرّب محمد دحلان رفع دعوى على موقع Middle East Eye في لندن، بسبب تقرير فيه جاء على «دور» للمذكور في محاولة الانقلاب العسكري ضد الرئيس أردوغان في تركيا. وأصرّ رئيس تحرير الموقع، ديفيد هيرست، على ما جاء في التقرير، ولم يحذفه، ومضى في الدفاع عنه أمام المحكمة، غير أن دحلان سحب الدعوى لاحقاً، قبل النطق بالحكم، الأمر الذي لزمه، كما نُشر، بدفع خمسمائة ألف جنيه استرليني تكاليف الدعوى. وليس بعيداً عن الموضوع، إلا من بعيد، أن مرّت كل التحولات التي شهدها المخيم، وأكتساب الخاصيات التي أخذت تميّز ساكنيه، عن المجتمع القروي على الأقل، أخذ اللاجئ، الفخور بشهادته الجامعية ومهنته الرفيعة، يبدي اعتداداً متزايداً بالنفس، ويغيّر الانطباعات القديمة المأخوذة عنه.

ويبدو أن هذه السيرورة التاريخية، وهذا المسار الشاقّ الذي قطعه المخيم على طول الطريق المديد، من قعر الفقر المدقع إلى سنام الثورة المعاصرة، مروراً بامتلاك مقوّمات المساواة وأدوات الندّية مع محيطه الاجتماعي، وأحياناً التفوق عليه، هي التي أوجدت هذه العواطف الحميمة، وهذا الحنين الجارف تجاه المخيم الذي كان قد فكّ أطواق العزلة عنه، وعمّق من مشاعر الانتماء إلى ما يمكن اعتباره وطناً متخيلاً، على نحو ما ترويه لنا مظاهر التعلق وشواهد الانتماء إلى مطرح مؤقت، وإنْ طال مطاله. ولعل النفير الذي دعت إليه أخيرا نخبة من أبناء مخيم اليرموك، الذي كثيراً ما تم وصفه عاصمة المخيمات الفلسطينية، لتوثيق الممتلكات، وتعيين الإحداثيات الدالة على أماكن المنازل الجاري جرفها، انتقاماً من رمزية اليرموك على ما يبدو، هي الدليل معينه على ما ذهبنا إليه في هذه المطالعة التي حاولت استقصاء مكامن هذه العلاقة الخصوصية بالمخيم، وفهم بواطن كل هذا التعلق الاستثنائي، بما أسميناه مجازاً «الوطن المتخيّل».

المخيم في المخيال الفلسطيني

عيسى الشعيبي

أملت مستجدّات مخيم اليرموك هذه المقاربة... إذ بعد أن دمرته واقتلعت معظم سكانه، شرعت السلطات السورية أخيرا في عمليات تجريف لبنيته، وهو الشاهد على جريمتين متعاقبتين (الأولى قبل 72 سنة)، حيث يجري اقتراف هذا الفعل بذريعة إعادة تنظيم المخيم الواقع على تخوم العاصمة دمشق، الأمر الذي أثار حفيظة رهط من الكتاب والمثقفين الفلسطينيين السوريين على وجه الخصوص، وأطلق حملة استنكار من أبناء المخيم المشرّدين في الخارج، مرفقة بدعوة مفعمة بالأسى، تطالب كل رب أسرة بتوثيق إحداثيات موقع منزله على خريطة غوغل.

ليست هذه هي المرة الأولى التي تفاجئني مثل هذه الحميّة الشديدة من سكان مخيم فلسطيني، إزاء أي اعتداء أو مسّ بملاذاتهم المؤقتة، أو التعرّض لمسقط رأس الكثرة الكاثرة منهم، فقد وقفت على مثل هذه الحالة، المشوبة بعاطفة حارّة، تجاه مخيمات أخرى في أقطار محيطة، حيث كانت تنتابني الدهشة، ويغفر فمي أحياناً، عندما كنت أجد بعضهم يضفي، في معرض الدفاع عن حوزته الأخيرة، هالةً من القداسة والطهارة على المخيم، ويتحدّث عنه كوطن متخيّل، لا مكان عيش انتقالي، كما يعلم في قرارة نفسه. لا أود أن أبدو في هذا المقام كذلك المستشرق الذي فهم أن الحسن والحسين هما من بنات معاوية بن أبي طالب، سيما وأنني لست ممن خبروا الحياة في المخيم، ولا ممن تشكلت شخصياتهم داخل حوائط بيوته المتراصفة، واكتسبوا في مداخله عند الكريم بالغ تأثره بالرئيس عبد الفتاح السيسي. إلى درجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة خارج قاموسه ومعجمه وسياساته وخطاباته وتوجيهاته، كأنه نحات بخلفية عسكرية، فقال مبدئياً إنه ليس نحّاتاً، وهو هنا يستلهم الرئيس الذي يشغل أكبر منصب سياسي في البلاد، ويقول عن نفسه في فخر إنه ليس سياسياً، في واحدةٍ من أصدق تصريحاته عن نفسه. وتابع عبد الكريم، أو عبد الفتاح، كما تشاء، أنه صنع تمثالاً غير مكتمل، وعلينا أن نصبر، إذا أردنا نتيجة، وأن من يقارنون بينه وبين تمثال محمود مختار غاب عنهم أن تمثال مختار جاء بعد اكتتاب شعبي، وأن الشعب وقتها دفع من جيبه ثمن الفن الجميل. أما الآن، فالظرف مختلف، واللبيب بالإشارة يفهم، فإن لم يفهم اللبيب، أو استعجل ولم يدفع، فسوف يذكره إبراهيم الجارحي، أحد مخبري النظام على «فيسبوك» أن نهضة مختار بفلوس، ونهضة عبد الكريم؛ عبد الفتاح السيسي ببلاش، فإما أن ترضى بالكتعة أو تدفع ثمن نهضتك من جيبك. لم يفت النحات الذي هو ليس نحاتاً أن يخبرنا أن العمل الفني الذي قال عنه إنه غير مكتمل، هو عمل عميق، لا يمكن الناس العاديين أمثالنا أن يفهموه أو يستوعبوه، فهو مثل الإجراءات الاقتصادية غير الشعبوية، والإنجازات السياسية والاقتصادية. غير العلنية، خوفاً من أهل الشر. وحاولت المذيعة أن تفهم منه ماذا أراد أن يقول في تحفته العميقة، فأخبرها بثقةٍ لا تهتزّ أنه لم يقصد النهضة التي يعرفها الناس، بل قصد نهضة أخرى، وهي النهضة من الكلبشة، البلد مكلبشة، وتقوم من كلبشتها. والحقيقة أن هذا هو أعمق ما جاء في إطلالة نحّات الضرورة، فمصر بالفعل في «الكلبش»، ولا يمكننا فهم تمثال مصر تنهض إلا من من منظور الكلبش. هكذا فقط يكون الفن بالكلبش، النحت بالكلبش، النهضة بالكلبش.. والحقيقة أنني تعاطفت مع الرجل، خصوصاً حين عرفت من المذيعة أن الإخوان المسلمين وراء الهجمة الشرسة على تمثاله، وعرفت منه شخصياً أنه لا يعرف ما المقصود بالإخوان، وأنه كان ممثلاً لمصر في بينالي فينيسيا، وسبق له أن أثار الجدل بأعماله الفنية، وأن وزير الثقافة الأسبق، الفنان فاروق حسني، رأى بعض أعماله، وأبدى اعتراضه على كونها «مقلوبة»، فإذا الفنان يردّ بثقة، بأن الدنيا هي المقلوبة، ونحن من يعدّلها. وأخيراً، ختم بأن له الحق في أن يفعل ما يشاء، فإذا وفقه الله، فبها ونعمت، وإذا لم يوفقه، فله الحق في تكسير ما فعل، ولا لوم عليه.

تاريخ الجنسانية... الفكرة وسوسيولوجيا المؤلف

مهنا الحبيل

«... بيد أنه كان يمكن لفوكو أن يتناول المؤلف الخطابي دون أن تتعرض نظريته لهذا الخطر، فإن للمنظومات المعرفية حياة دائرية، (..) وحتى عندما تناول فوكو أسلاف النظم الحديثة، مثل أشكال المراقبة والقوننة، لم يكن ذلك لتوضيح سبل النظم والتغيير التاريخية - (..) إن لطرح فوكو مظهراً تزامنياً خادعاً» .. وائل حلاق

في مطلع كتابه «تاريخ الجنسانية» وافتتاحيته الصارخة «نحن الفكتوريون»، يبدو ميشيل فوكو كمن يدوّن بلاغاً للثورة، في بيانها الأول، وقد كان لكتابه هذا أصداء الثورة بالفعل. هنا يجب أن أوضح، ابتداءً، أنني أتناول هذه الفكرة والرأي من خلال رؤيتي التي تختلف عن رؤيتي وائل حلاق وإدوارد سعيد، مع تقدير مكانتهما الكبرى، فالموقف من مسارَي فوكو يحتاج إلى تدريج.

على الأقل، لكي يطرح فكرته النقدية للعالم الإنساني، وليس للشرق فقط، بصورة واضحة، وهذا يتفق مع دعوة فوكو إلى نقد إرث كانط، أو كليات رسالة التنوير والمال الذي كانت تعيشه أوروبا، في مقولته «إن المهم رفض من نحن»، فنحن الجندرية المهيمنة اليوم التي أسس فوكو منهجها الحديث، أضحت سلطة تستحق أفكارها على الأقل المراجعة والنقد.

ولربط هذا الجدل بإشكالية المركز الخطابي الذي عاد ليضم نظرية فوكو ذاتها في سلطته، نُشير إلى موقف الفيلسوف الفرنسي، رينيه غينون، أنه لا يوجد تمايز حقيقي بين أشكال المعرفة، المحدّدة داخل الحقول الأكاديمية الغربية، لأنها تنطلق من رؤيةٍ كونيةٍ واحدة. لتعميم غينون الصعب جذورٌ مرصودة، ولكن قد يُختلف معه في التفصيل، فجذر التفكير لدى النفس الإنسانية أضحى يعيش بالفعل تحت وصايةٍ مختلفة، وظرف حاكم على تفكيرها، وهذا يعود بنا مباشرة إلى الحالة الذاتية والنفسية التي ألف فيها فوكو تاريخ الجنسانية، وما أعقبه.

لقد مثّل رفض الروح المطلق، ورفض المصادر المعرفية غير العلم التجريبي، إلى روح قلقة للغاية ومضطربة، فسؤال الموت وما بعده أوجد سؤال بقاء الحياة ومرجعها، وكلا هاتين النظريتين باتت ضمير وجدان منفعل، في داخل المؤلف، وقد لا يشمل ذلك كل تعريفات الإلحاد، ولا المؤمنين بالعلمانية الماركسية الحادة. لكون بعض ممارسي تلك الفلسفية المعاصرة ومحرّريها، قرّر أن يتعايش مع حقيقة علمية كبرى، يستشعرها، في وجدانه الداخلي، وفي تأملاته في صور الكون، وهذا يبرز في من تكون رحلته العلمية في فضاء الكون، أو علوم الطبيعة، فهنا قد لا ينشغل بهذا الإله الخالق، ولا بعلاقته به، وإنما لديه تسليم بوجوده ينعكس على استقرار نفسي أفضل من الباحث المؤمن بالعدمية الكلية، فيسعى العدمي لتفسيرات متعدّدة ثم يُحبط، فيتجه إلى محاولة تنظيم حركة الإنسان، بناء على قناعةٍ صنعها ظرفه، وانفعالاته النفسية. وهكذا يبدأ بتدوين مقدّمات تاريخ الإنسان، وخصوصا الإنسان الأوروبي، ثم يصل إلى ما بعد الدولة المدنية، وأين يُطوّر فيها نظريات الحرية، هنا المأزق الكبير، في إصرار النفس المأزومة على خلق مدار يُقنع ذاتها وبقنع الجمهور، بأنها تتطور إلى معالم أفضل، وأنها تتجه في مدارات متدرّجة لتطور الحرية.

هنا، حالة ميشيل فوكو مهمة جداً للفهم، فبعدما نجح في تحريك أسئلة الأكاديميا الغربية، نحو دور القوة في صناعة وتحديد معايير التاريخ والقانون، والتجرّد الإنساني، عاد إلى محاولة صناعة تحرير الفرد من السلطة، فخلق ميزاناً عبر دراسة قرنين في أوروبا، وظواهره الاجتماعية والسلوكية، وهي دراسةٌ بذاتها تحتاج إلى التحقيق المنصف والمتوازن، ثم حمّل منظومات هذه الأزمات كلها، عبر معادلة الجنس والعلاقة معه.

ونحن نتتبع بالذات خطة كتابه تاريخ الجنسانية، والتدقيق المفاهيمي فيها، خلط فوكو بين السلطة السياسية والسلطة المجتمعية والمآلات العقابية، من دون أي توقف أو مراجعة أو حتى مناقشة للميراث الأخلاقي الكلي لعلاقات البشرية، في اتجاهين رئيسيين لكامل الحياة الفطرية، وهي علاقة المجتمع وعلاقة القانون بمصالح المجتمع، ثم علاقة الأسرة الصغيرة بذاتها وبكل أفرادها.

كان ذلك كله ضمن درجة ممنهجة، سعى إليها فوكو عن عمد ظني لا تقصّ علمي، على الرغم من أن الإمكانة التي عرضها، سواء كنماذج لانحطاط السلوك أو الظلم، في تاريخ أوروبا، أو رحلة الأخلاق في التاريخ البشري، لم تكن تطرح لديه مقابلها أي مصادر، فضلاً عن نظريات الشرق، فكيف يعتبر وصف وائل حلاق له مؤرخا مرموقا، أو تضخيم قيمته المرجعية عند إدوارد سعيد دقيقاً. ولسنا هنا نشكك في مكانة ميشيل فوكو، في موقعه الفلسفي، غير أننا نؤكد أهمية المراجعة لتحريراته للأيديولوجية النهائية، وكيف تعمم اليوم وتتأسس عليها نظريات التطرف الجذري الحديث. واصل فوكو رحلته التي لم تكن تعترف بأي معيار أخلاقي، ثم واصل ربط السلطات، حتى وصل إلى سلطة الذات والجنس، وهنا رابط مهم يظهر لدى الإلحاد العدمي، بحيث يُستدعى الجنس أساس حياة، مرتبطا بالوجود. وهنا تعقيب وتفصيل مهم، عن الجنس البشرية، في اتجاهين رئيسيين لكامل الحياة الفطرية، وهي علاقة المجتمع الخالق، ولا بعلاقته به، وإنما لديه تسليم بوجوده ينعكس على استقرار نفسي أفضل من الباحث المؤمن بالعدمية الكلية، فيسعى العدمي لتفسيرات متعدّدة ثم يُحبط، فيتجه إلى محاولة تنظيم حركة الإنسان، بناء على قناعةٍ صنعها ظرفه، وانفعالاته النفسية. وهكذا يبدأ بتدوين مقدّمات تاريخ الإنسان، وخصوصا الإنسان الأوروبي، ثم يصل إلى ما بعد الدولة المدنية، وأين يُطوّر فيها نظريات الحرية، هنا المأزق الكبير، في إصرار النفس المأزومة على خلق مدار يُقنع ذاتها وبقنع الجمهور، بأنها تتطور إلى معالم أفضل، وأنها تتجه في مدارات متدرّجة لتطور الحرية.

هنا، حالة ميشيل فوكو مهمة جداً للفهم، فبعدما نجح في تحريك أسئلة الأكاديميا الغربية، نحو دور القوة في صناعة وتحديد معايير التاريخ والقانون، والتجرّد الإنساني، عاد إلى محاولة صناعة تحرير الفرد من السلطة، فخلق ميزاناً عبر دراسة قرنين في أوروبا، وظواهره الاجتماعية والسلوكية، وهي

> نجح فوكو في تحريك أسئلة الأكاديميا الغربية، نحو دور القوة في صناعة وتحديد معايير التاريخ والقانون، والتجرّد الإنساني

هذا مشروعنا، وهذه قضيتنا

نزار قنديل

لدينا مشروعنا الإعلامي المهني والملتزم بمبادئ عامة متعلقة بالانحياز للعدالة والحرية وقضية فلسطين وقضايا الشعوب العربية. وكتبنا من البداية أنّ هذا الانحياز لا يتناقض مع المهنية الإعلامية، ولا يختلف بذلك عما تمتاز به كبريات وسائل الإعلام العالمية، وقد نقل عنها انحيازاً. نحترم المشاريع الأخرى المنحازة لقضايا الشعوب العربية، ولا نرى في التنوع ضعفاً بل قوة. لسنا مشروعاً إعلامياً حزبياً أيديولوجياً، بل مشروع إعلامي مهني يلتزم بضوابط ومواقف.

هل رأيت صهيونياً إسرائيلياً، تسلّل، ولو مرة واحدة إلى صفحات «العربي الجديد»، في نسختها الورقية، او عبر بوابتها الإلكترونية؟ الإجابة، لا... متى لمحت، صوتاً، أو صورة، أو تعليقاً، لأي صهيوني إسرائيلي؟ أو وجهاً من وجوه التطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي، على شاشة «التلفزيون العربي»، الذي يحتفل بذكرى انطلاقته كل عام في 25 يناير، بكل ما يحمل ذلك من إشاراتٍ واضحة، صريحة، بيضاء من غير سوء؟ لم يحدث قطعاً... هل يمكن أن تأتي بدقيقة بث واحدة، لأحد هؤلاء الذين أشرت إليهم سابقاً، عبر «تلفزيون سوريا» ولو من باب السهو، أو الخطأ في أية مناسبة؟ لن تستطيع، ولو انتظرت سنين طويلة.

ائتني باستضافة واحدة في «العربي الجديد»، أو «التلفزيون العربي»، و«تلفزيون سوريا»، لأحد شرّاح الإرهاب المسلح، الذين شوّهوا صورة أمتنا العربية، والإسلامية، بالقول، والفعل، والإشارة؛ هل يمكنك أن تجد شيئاً من هذا عبر هاتين المنصتين في السبع؟ لم، ولن تتمكّن، فتاريخها لم يلوّث بشيء من هذا، في أي ظرف، وتحت أي مبرّر، أو اعتبار؛ وهو أمرٌ ينطبق كذلك على «الشبيحة»، و«البلطجية»، العاملين في خدمة نظام الاستبداد، والقمع، وقتل البشر في دول عربية كثيرة.

هاتان في صفحة واحدة عربية، وربما دولية، أصابت رأس النظام في أكبر دولة عربية بالصدمة، بعد أيام قلائل من انطلاقتها، فكان أن جيّش إعلامه، وغلمانه، وأجهزته، في معركةٍ غير شريفة، من طرفه، ومن لحظتها، وهو وما زال، وسيظل، حتى زواله، يتلقى الهزيمة تلو الأخرى، امام مهنيتها، واحترامها مبادئها، وقيمها الإنسانية؛ وهي هزيمةٌ أقرّ بها هو، وكرزها كثرٌ من المنتمين، والقريبين من نظامه في أكثر من مناسبة، بالتصريح تارة، وبالتلميح مرّات.

هل كان سراً، أو شأناً غائباً عن أحد، أنّ سلطات محور الشر الذي حاصر قطر، وينشر استبداده، والإرث قتله، ومعدّات قمعه، وإرهابه في أكثر من بلد عربي، استنفرت كل إمكاناتها المالية والفنية، لتحجب «العربي الجديد»، عن القرّاء في بلدان هذا المحور، فمفتحة سلسلةٌ من الحجب طاولت، فيما طاولت، بضع مئات من المواقع الإلكترونية والصحف، حتى بات الأمر مدعاةً لتندبد الانفتاح والعمل المشترك، قدر ما تسمح به دورة العمل التي تتمسّك بالحرفية، والمهنية، والسعي إلى إنجاز حقيقي. لم تقدّم منظومة الإعلامية المهنية غير الحزبية ولا المتحزبة لتنافس أحداً بل لتسهم بطريقتها وأسلوبها في النهضة العربية الجديدة.

هذا الرجل يفعل ذلك، وقد اختار معركته، ودائرة اصدقائه التي تتسع لكل مواطن في العالم العربي، بكل عرقياته، وطوائفه، ومذاهبه، وأفكاره، ما دام يتشارك معه في الانشغال الحقيقي، لا الزائف، بهموم هذه الأمة، ليكون بهم ومعهم، في أتون معركةٍ عربية محترمة، لم تنقل من وعن «العربي الجديد»، وعن «التلفزيون العربي»، سواء بالنقل، والإقتباس، في تقاريرها، وعلى السنة العاملين فيها، وضيوفها؛ إلى درجة تصل، في حالات عدد قليل منها، إلى التعيش الكامل على هذا الرصيد من المعلومات.

قبل ذلك، وبعده، أجبني عن السؤال الأهم، لماذا صدرت، وأسست هذه المنظومة الإعلامية الساعية باستمرار إلى تطوير نفسها؟ في أي لحظة كان القرار، والتنفيذ، والانطلاق؟ ماذا عن الأهداف المعلنة، منذ اللحظة الأولى، والتي ترجمتها خطط، وبرامج عمل، والبات تنفيذ، لا لبس فيها، ولا غموض، ولا مراوغة، بل موقف واضح وخطوات ظاهرة للعيان، تجلت في إعلان الميلاد عن أولها، حين كان السؤال المنطقي، «من نحن؟»، وكانت الإجابة العملية، هي نحن «العربي الجديد».

راجع من فضلك تواريخ الانطلاقة لكل وسيلة إعلامية في هذه المنظومة، لتجد أنها تتوزّع بين ذكرى يوم الأرض الفلسطينية، وانطلاق ثورة الخامس والعشرين من يناير، والشرارة الأولى للثورة السورية، وتذكّر أن ذلك لم يكن خبط عشواء، بل هو اختيار وقرار، ورسالة نعتزّ بها، وإحياء ذاكرة عربية في زمن تتكالب فيه محاولاتٌ لا تعرف التوقف لطمس الهوية، والعبث بالتاريخ، والتلاعب بجغرافية العالم العربي، على يد نظم البطش والاستبداد، والمراهقة السياسية، وهي كذلك سعي دؤوب إلى ترسيخ وعي جديد، متنور وعقلاني وأخلاقي في الوقت ذاته، لأجيال شابة فاجأت العالم كله، وأدهشته في العام 2011، بإصرارها على أن تصنع تغييراً حقيقياً في بلاد العرب، غير مبتذ الصلة بتاريخ نضالي للشعوب، عبر قرون ممتدّة، وبعد عقود طويلة من التكلس، ظن وأهمون كثر أنه هو القاعدة التي لا يمكن أن تتغيّر.

أخبرني، من فضلك، عن مفكر عربي معاصر، كان يربط البحث، والعمل الأكاديمي المنهج، بانضال حقيقي على الأرض، وفي الشارع، وبين الناس، يتلقى معهم هراوات غليظة من أمن الاحتلال الصهيوني لفلسطين، فيحوّل ذلك إلى خبرة حقيقية في كيفية صهر الفكر الإنساني بالثورة... ثم دعني أخبرك عن رجل استضافته دولة قطر وهو ملاحق من الصهاينة واسس بدعم من اميرها مركز أبحاث، أصبح المركز الأهم والأغزر إنتاجاً في العالم العربي. واسهم في هذه الدولة الرأعية وصاحبة المشروع الثقافي والإعلامي في بناء معهد متميز للدراسات العليا، ومنظومة إعلامية (هي فائدة كبرى للثقافة العربية والشعوب العربية تتكامل معه قوة ناعمة لها في الوقت ذاته)؛ وبذل الجهد ووجد الوقت ليشرف عليها تضم طيفاً متنوّعاً من الوسائل، والوسائط، بإدارة واعية تسمح باستيعاب الأفكار المختلفة، بل المتنافرة أحياناً بآداب وصبر، وممارسة الانفتاح والعمل المشترك، قدر ما تسمح به دورة العمل التي تتمسّك بالحرفية، والمهنية، والسعي إلى إنجاز حقيقي. لم تقدّم هذه المنظومة الإعلامية المهنية غير الحزبية ولا المتحزبة لتنافس أحداً بل لتسهم بطريقتها وأسلوبها في النهضة العربية الجديدة.

هذا الرجل يفعل ذلك، وقد اختار معركته، ودائرة اصدقائه التي تتسع لكل مواطن في العالم العربي، بكل عرقياته، وطوائفه، ومذاهبه، وأفكاره، ما دام يتشارك معه في الانشغال الحقيقي، لا الزائف، بهموم هذه الأمة، ليكون بهم ومعهم، في أتون معركةٍ حقيقية مع كل قوى الاستبداد مهما طالت، واستطالت، فهذه القوى، وسواء كان لها سلطة سياسية، أو أي نوع من التسلط الظالم، هي العدو الذي يسعى إلى هزيمته. وتلك هي معركته الحقيقية، ولأسباب موضوعية، تكلفه كثيراً من محاولات الاستهداف التي لا تتوقف، المعلن منها والخفي، من نظم حكم، ومنظومات أمنية، وإعلامية تعلن ليل نهار، أنه مستهدف.

هذا هو عزمي بشارة، وتلك معركته الحقيقية، لا وقت فيها لخربشات صغيرة، ولا لمناوشات تافهة، تضيّع الوقت، وتصرف الجهد في ما لا يستفيد منه سوى كل مترّبص بالحلم العربي والتوق إلى التغيير، وانتزاع المكانة التي تليق بالإنسان. هذا هو الرجل الذي لا يجد الشامتون، ومحترفو البذاءة، والابتذال، والتردّي، ما يوجهونه له من انتقادات، سوى أن يستعينوا بتخاريف وبذاءات إعلام عبد الفتاح السيسي، ومحمد بن زايد، ومحمد بن سلمان، أو بنشر شائعات رخيصة تطاول أي نجاح.

وهو أمرٌ يراه بعض المندهشين نوعاً من المفارقة، وأراه «طبيعياً» لمعرفتي بفداحة التفاهات والصغائر والحسد والغيرة حين تتملك صغار النفوس وتجرهم إلى التصرف على نحو يخدم من يفترض انهم خصومه.

هو نفسه الذي يلتزم في أفعاله، وردود أفعاله، في مواقفاته، واختلافاته، بالأدب وقيم النخوة، والشهامة، والشرف في الخصومة، مع محترفي الشتم، ومروّجي الشائعات، والافتراءات، إذ لا يعقل أن ينجر إليها مفكر عربي صاحب سمعة عالمية، فكونه اختار أن ينحاز إلى قضايا الشعوب لا أن يجلس في برج أكاديمي عاجي، وأن يتخذ مواقف لا أن يترفع على السياسة ببعدها الأخلاقي، خلافاً لما يفعل بعض أقرانه، لا يعني أن يقبل أن يجر إلى مستنقعات البذاءة.

عزمي بشارة، القادم من ميادين النضال، والفكر، والبحث، والفلسفة، أنجز ما يزيد عن عشرات الكتب بعضها مجلدات، وبعضها أصبح أعمالاً مرجعية في مجالها، ومنها سفره في التاريخ لثورة مصر، ربما هو المرجع العلمي الوحيد الذي يقدم توثيقاً، وشهادات حية، وتحليلاً معمقاً، واستشرافاً لآفاق هذه الثورة العظيمة، ناهيك بعشرات الدراسات والبحوث في مجالات الفكر، والسياسة؛ وما زالت مسيرته الفكرية ممتدة، لتثري الفكر الإنساني، بما ينفع الناس، ويمكث في الأرض...

هذا نحن، وهذا مشروعنا، وتلك قضيتنا، فلينظر كل إلى نفسه، وإلى ما أنجز وينجز.

> اختار عزمي بشارة معركته، وحدّد عدوه، ودائرة أصدقائه التي تتسع لكل مواطن في العالم العربي، بكل عرقياته، وطوائفه، وأفكاره

النهضة من الكلبشة

محمد طلبة رضوان

انتشر على موقعي التواصل الاجتماعي، فيسبوك وتويتر، تمثال لنحات مصري اسمه أحمد عبد الكريم رعنوان، مصر تنهض. وصاحبت انتشاره موجة عارمة من السخرية والكوميديا والمقارنات بالتماثيل المصرية، الفرعونية، وتماثيل عصر النهضة، وأبرزها تمثال محمود مختار. ولم تخلُ موجة السخرية من حسرة حقيقية، واستياء، وحزن على ما آل إليه مستوى النحت في بلادٍ تمتلك منحوتات أقدم من الزمن، وأجمل من كل ما تُرى من آثار. استبعد بعض المتابعين أن يكون التمثال جاداً، ظنه بعضهم محاولةً للسخرية مما يحدث في مصر. وظنه آخرون حيلةً خبيثةً من فنان خائف، أراد أن يعبّر عن رأيه في أحوال البلد، فنحت هذا التمثال الذي يشبه نعيمة الصغير في دور الكتعة التي تخطف الأطفال الرّضع، وتسبب لهم عاهات مستديمة وتستخدمهم في التسوّل والسرقة والنصب والاحتيال، وهي صورةٌ قريبة بالفعل مما تشهده البلاد، ولا لوم على الفنان أصلاً!

استمرّ الجدل حول مواقع التواصل يومين، وشارك فيه فنانون أكاديميون. ونفوا أي علاقةٍ بين التمثال والفن أو مصر أو النهضة أو أي عمل جاد لأي بالغ عاقل مميز مكلف مسؤول. واستمرت الحيرة تنهش عقول المصريين ونهضتهم، إلى أن ظهر الفنان ناحت التمثال في لقاء متميز على تلفزيون عبد الفتاح السيسي (اليوم السابع سابقاً)، وهو اللقاء المرتقب الذي انتظره الملايين، ولم يشاهده أحد. لفت نظري في مداخلة عبد الكريم بالغ تأثره بالرئيس عبد الفتاح السيسي، إلى درجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة خارج قاموسه ومعجمه وسياساته وخطاباته وتوجيهاته، كأنه نحات بخلفية عسكرية، فقال مبدئياً إنه ليس نحّاتاً، وهو هنا يستلهم الرئيس الذي يشغل أكبر منصب سياسي في البلاد، ويقول عن نفسه في فخر إنه ليس سياسياً، في واحدةٍ من أصدق تصريحاته عن نفسه. وتابع عبد الكريم، أو عبد الفتاح، كما تشاء، أنه صنع تمثالاً غير مكتمل، وعلينا أن نصبر، إذا أردنا نتيجة، وأن من يقارنون بينه وبين تمثال محمود مختار غاب عنهم أن تمثال مختار جاء بعد اكتتاب شعبي، وأن الشعب وقتها دفع من جيبه ثمن الفن الجميل. أما الآن، فالظرف مختلف، واللبيب بالإشارة يفهم، فإن لم يفهم اللبيب، أو استعجل ولم يدفع، فسوف يذكره إبراهيم الجارحي، أحد مخبري النظام على «فيسبوك» أن نهضة مختار بفلوس، ونهضة عبد الكريم؛ عبد الفتاح السيسي ببلاش، فإما أن ترضى بالكتعة أو تدفع ثمن نهضتك من جيبك. لم يفت النحات الذي هو ليس نحاتاً أن يخبرنا أن العمل الفني الذي قال عنه إنه غير مكتمل، هو عمل عميق، لا يمكن الناس العاديين أمثالنا أن يفهموه أو يستوعبوه، فهو مثل الإجراءات الاقتصادية غير الشعبوية، والإنجازات السياسية والاقتصادية. غير العلنية، خوفاً من أهل الشر. وحاولت المذيعة أن تفهم منه ماذا أراد أن يقول في تحفته العميقة، فأخبرها بثقةٍ لا تهتزّ أنه لم يقصد النهضة التي يعرفها الناس، بل قصد نهضة أخرى، وهي النهضة من الكلبشة، البلد مكلبشة، وتقوم من كلبشتها. والحقيقة أن هذا هو أعمق ما جاء في إطلالة نحّات الضرورة، فمصر بالفعل في «الكلبش»، ولا يمكننا فهم تمثال مصر تنهض إلا من من منظور الكلبش. هكذا فقط يكون الفن بالكلبش، النحت بالكلبش، النهضة بالكلبش.. والحقيقة أنني تعاطفت مع الرجل، خصوصاً حين عرفت من المذيعة أن الإخوان المسلمين وراء الهجمة الشرسة على تمثاله، وعرفت منه شخصياً أنه لا يعرف ما المقصود بالإخوان، وأنه كان ممثلاً لمصر في بينالي فينيسيا، وسبق له أن أثار الجدل بأعماله الفنية، وأن وزير الثقافة الأسبق، الفنان فاروق حسني، رأى بعض أعماله، وأبدى اعتراضه على كونها «مقلوبة»، فإذا الفنان يردّ بثقة، بأن الدنيا هي المقلوبة، ونحن من يعدّلها. وأخيراً، ختم بأن له الحق في أن يفعل ما يشاء، فإذا وفقه الله، فبها ونعمت، وإذا لم يوفقه، فله الحق في تكسير ما فعل، ولا لوم عليه.

في حماية «الاستثنائية الأردنية»

محمد أبو رمان

لم يكن تجنّب الأردن سيناريو ما حدث في دول عربية خلال حقبة الربيع العربي محض مصادفة، بل لأنّ هنالك ما كان الإخوان المفلسون يسمونها «الاستثنائية الأردنية» التي تقوم على طريقة مختلفة عن باقي الدول العربية في إدارة الأزمات، من خلال المرونة في الاستجابة للشارع، وتجنّب السياسات العنيفة ذات الطابع الأمني الخشن. صحيح أنّ الأردن ليس دولة ديمقراطية بالمعنى المعروف؛ تداول سلطة، وتعدّدية سياسية، وحكومات برلمانية منتخبة، وحريات سياسية وحقوق إنسان، لكنّه، في الوقت نفسه، لم يكن في أيّ وقت سلطوية دموية، يمكن أن ينطبق عليه وصف «شبه سلطوية» أو «شبه ديمقراطية». حتى في ذروة الانقلاب على الربيع العربي 2013، مع تعثر التجارب المصرية والسورية والليبية واليمنية، والانتقال حلفاء الأردن من معسكر «الاعتدال العربي» إلى سياسات «أخونة الإرهاب» وتجريم الإخوان المسلمين ومحاربتهم، وهي بداية ما يمكن أن نطلق عليها «السلطوية العربية الجديدة» (ذات سمات مغايرة بدرجات للسلطوية التقليدية) تجنّب الأردن هذا المسار، وحافظ على خطّ أقل اندفاعاً، على الرغم من وصول الإخوان إلى الحكم والإخوان المسلمين إلى مرحلة حساسة ومتقدّمة، وعلى الرغم أيضا من اتخاذ خطوات غير مسبوقة في إعادة هيكلة الأوضاع القانونية للجماعة وتحجيم دورها سياسياً.

ثمّة قلق في الأردن اليوم على صعيد النخب السياسية والمثقفين من أنّ هذا النموذج الاستثنائي أمام اختبار حقيقي مع الأزمة المتدحرجة بين الحكم والمعلمين، والتي أدّت إلى حل مجلس النقابة وزجّ عشرات المعلمين في السجون، ووضع لجنة حكومية لإدارة شؤون النقابة مع تجميدها عامين، وحظر النشر إعلاميا

عن سجال الريف والمدينة في سورية

حسين عبد العزيز

برز أخيرا سجال حاد على وسائل التواصل الاجتماعي، إثر منشور كتبته الصحافية ميساء آقبيق تحط فيه من قدر الريف ودوره في تخريب الثورة السورية، ثم ألحق المنشور بمنشور آخر للمعارض السياسي، سمير نشار (كان أقل حدة وأكثر موضوعية من منشور آقبيق) يُحمّل فيه الريف مسؤولية ترييف الثورة وأسلمتها. وأن يطرح النقاش حول جدلية الريف والمدينة لأجل الوقوف على نقاط الضعف التي تعتري المجتمع السوري، فهذا من الفعل المعرفي الضروري، وأن يطرح النقاش لمعرفة السمات الجوهرية للريف والمدينة، فهذا مهم، حين يتعلق الأمر بالقضايا السياسية العامة، وبالحراك السياسي العام، شرط أن يوضع التمييز بينهما ضمن السياق التاريخي لتطوّرهما، خصوصا في مرحلة ما بعد وصول حزب البعث إلى الحكم. ولكن أن تطرح جدلية الريف والمدينة لتصيد الأخطاء، ولإبراز العلو الاجتماعي والأدوار التاريخية السابقة، فهذا أمرٌ لا أهمية له وغير مفيد، بل قد يشكل ضررا للعلاقة بين الريف والمدينة مستقبلا في وعي كثيرين.

كتبت آقبيق منشورها بلغة أقرب إلى المخيال الاجتماعي منه إلى المعرفة السوسيولوجية، والمخيال الاجتماعي مجالٌ تسوده القناعة، وليس مجالا تسوده المعرفة، كما جاء منشورها أقرب إلى النزعة الانفعالية غير الموضوعية، فاستنبطت من حالاتٍ فردية أحكاما كلية. وبهذا، من دون أن تدري، قامت بتعميم المفاهيم ومنحها حالةً معطاة ثابتة لوضع إمبريقي متغير. بعبارة أخرى، كان منوطا بآقبيق دراسة الآثار السياسية والعسكرية لتجربة الريف خلال الثورة، واستخلاص العبر منها، بدلا من استنباط تعاريف ثابتة للريف (لم يعيشوا أدنى معايير المدنية، يستطيعون العيش في جميع الظروف ومع أي معطيات، أنهوا تماما جميع المكونات المجتمعية السورية من المتعلمين والعارفين والكفؤين وأبناء العائلات الشبعانة). وفي المقابل، كتب سمير نشار منشوره بلغة الحتمية التاريخية، على اعتبار أن الريف والمدينة، من وجهة نظره من دون أن يصرح بذلك، حالتان ثابتتان خارج السيرورة التاريخية.

ليس هدف هذا المقال رفض مقولة آقبيق ونشار عن أهمية المدينة ودورها التاريخي في كل الأزمنة والأمكنة، فلا خلاف على ذلك، بل قد أذهب إلى أكثر من ذلك، لأقول إن غياب المدينة، بوصفها حالة مدنية سياسية. اقتصادية، خلال العقود الماضية، كان سببا رئيسا في اتخاذ الثورة المسارات التي اتخذتها.

لقد نشأ مفهوم التحضر من المدينة وليس من الريف، ونشأ الفرد المنعزل الذي يتلمّس كينونته في المدينة، حيث الفضاء العام ومؤسسات المجتمع المدني، بما يتيح للفرد امتلاك أدواتٍ للتعبير ليست موجودةً في الريف.

وبهذا يصبح الإنسان الفرد في المدينة كائنا معقدا، بسبب تعدّد رؤاه وتعدّد إمكانية التعبير عن هذه الرؤى، بعكس عالم الريف، حيث سردية الحياة تميل إلى النسق النمطي.

ولذلك يغلب على الريف أسلوب التبعية، وأسلوب العمل الجماعي لا باعتباره عملا جماعيا يعكس إرادة الأفراد الداخلين فيه، بقدر ما هو عمل جماعي عضوي، ضمن كتلة صماء في أحيان كثيرة. في المدينة، تتلاقى الذوات الفاعلةّ والمنفعلة، بكل تنوعاتها الاجتماعية. السياسية. الاقتصادية . الثقافية . الطائفية . الإثنية. ومن هذا التنوع والتلاقي اليومي، تتوسع المدارك وتتنوع الخيارات الفردية والجماعية، وهو أمر غير متاح في معظم الأرياف.

يروي المؤرخ الدمشقي، ابن كنان الصالحي، في بدايات القرن الثامن عشر، أن بيوت الولاة لم تكن تخلو من الصالونات الفكرية، حيث يجتمع علماء الدين والأدباء والشعراء ورجال السياسة وطلبة العلم للتباحث في القضايا المعرفية والسياسية. ويتابع إن هذه المجالس لم تقتصر على بيوت الولاة، بل كانت منتشرة في أحياء دمشق في الأسواق والحمامات والمقاهي، فضلا عن الأديرة والكنائس التي كانت مكانا للعلم. وعن دور علماء الدين، يروي ابن كنان حكاية تعبر عن واقع الحال آنذاك، فيقول إن مفتي الحنابلة بدمشق، أبو المواهب الحنبلي، رفض أوامر الوالي العثماني دفع الضرائب، وهدد مع طلابه بعدم إقامة صلاة الجمعة.

وتكشف هذه المعطيات التاريخية البسيطة ما تملكه المدينة كحاضرة من فضاء مدني، يتيح أدوارا سياسية وثقافية للفاعلين الاجتماعيين، لا يمكن توفرها في الريف. وحتى الأرياف التي حققت تطورا اجتماعيا واقتصاديا خلال القرن الماضي، وقعت في مأزق هوياتي، فهي، وإن تركت عالم الريف القديم القائم على الفلاحة، وانتقلت إلى عالم الصناعة والتجارة، إلا أنها لم تتحوّل إلى حالة مدينية كاملة، فافتقرت روح الريف وقيم المدينة في آن. ومن هذا الضياع، تبلورت ذوات تبحث عن أدوار اجتماعية، حتى وإن كانت أدوارا شكلية، وقد وجدت كثرة من هذه الذوات ضالتها في الثورة، ولكن على طريقتها الخاصة.

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن كثيرين ممن حملوا السلاح في القرى كانوا من رعاع القوم ودهمائه، ومن المهم الانتباه هنا إلى نقطة حساسة، أن حالة الدهماء هذه حالات فردية، لا جماعية تعبر عن الريف (وهو الخطأ الذي وقعت فيه الصحافية ميساء آقبيق)، لكن المهم في هذه الحالة أن الفضاء الريفي يسمح بوجود مثل هؤلاء، بخلاف فضاء المدينة الذي لا يسمح بذلك، لأن أدوات المدينة تختلف اختلافا كبيرا عن أدوات الريف.

وقد جانب سمير نشار الصواب، حين كتب إن أدوات الاحتجاج في المدينة ضد السلطة هي المظاهرة، الإضراب، الاعتصام، العصيان المدني، لكنه تسّرع، حين اعتبر أن أداة الاحتجاج الوحيدة في الريف هي حمل السلاح. .. الفرق، كل الفرق، بين أن يكون السلاح أداة الاحتجاج الرئيسية في الريف واعتبار أن الفضاء العام في الريف يسهّل عملية حمل السلاح، خصوصا في الأرياف الجبلية والصحراوية في ظروفٍ معينة. وثمّة فرق هنا بين من حمل السلاح مضطرا للدفاع عن حياته وأسرته ومنزله في مواجهة سياسة القتل التي اتبعها النظام ومن حمل السلاح اعتقادا منه أنه أحد الأدوات الرئيسية لانتصار الثورة. وفي الحالتين، يسمح الفضاء الريفي بحمل السلاح، في حين لا يسمح فضاء المدينة بذلك.

وعليه تساهل النظام منذ البداية، أو غض الطرف عن عمليات تهريب السلاح في الأرياف، خصوصا من لبنان.

إضافة إلى ذلك، لا يسمح الواقع في دمشق أولا، ثم حلب ثانيا، بحمل السلاح، بسبب السيطرة الأمنية المباشرة للنظام. ولست أدري لو ضعفت هذه القبضة الأمنية، هل سيحمل أهالي المدينتين السلاح إن اضطرّوا إلى ذلك، ولعل في تاريخ الثورة الفرنسية ما يجيب بأثر رجعي، حين كان أهالي باريس، لا الريف الفرنسي، هم من حملوا السلاح بداية، والرابع عشر من يوليو/ تموز عام 1789 ما يزال حاضرا، حين اقتحم باريسيون سجن الباستيل، وحصلوا على 32 ألف بندقية. أما في ما يتعلق بأسلمة الثورة السورية، فهذه مسألة لا تتعلق بطبيعة الهويات بين الريف والمدينة، بل إذا ما أخذنا البعد الهوياتي والبيئة الاجتماعية بعين الاعتبار، فإن المدينة في سورية أكثر محافظةً وتدينا من الأرياف، وكثيرا ما يأخذ أبناء المدن على الريف حالة الميوعة الدينية على المستوى السلوك الاجتماعي.

> أن تطرح جدلية الريف والمدينة لتصيد الأخطاء، ولإبراز العلو الاجتماعي والأدوار التاريخية السابقة، فهذا لا أهمية له وغير مفيد

> لم تعد المدينة، وتحديدا دمشق وحلب، تمتلكان أدوات القوة السياسية التي تخوّلهما الريادة، بعدما غادرت القوى الاقتصادية والسياسية البلاد

تعود أسلمة الثورة في الريف إلى انعدام الخيارات الأيديولوجية الأخرى، فليس ثمّة أيديولوجية وطنية في سورية، وعادة ما يلجأ الإنسان، في لحظات الخطر، إلى الدين وسادة أيديولوجية تبعث على الطمأنينة من جهة، وتشحذ الهمم من جهة أخرى، ولم تكن مصادفة أن تأتي الأسلمة عقب عسكرة الثورة لا قبلها. يضاف إلى ذلك البعد الخارجي في الصراع، حيث لعب الدعم الإقليمي للثورة دورا في دفعها نحو الأسلمة. وبهذا، كانت أسلمة الثورة كعملية تعبيرا عن وضع خاص عاشته الثورة السورية، يعبر عن مرحلة تاريخية في ظروفٍ تكاد تكون تاريخية، وبالتالي لا يمكن اعتبار الأسلمة تعبيرا عن حالة هوياتية للريف. ومع ذلك، قد يكون لغياب الخيارات السياسية والمدنية في الريف دورا في الذهاب نحو الأسلمة، إلا أن هذا العامل لا يشكّل أهمية كبرى في ضوء عمليات القتل التي بدأها النظام.

كان حريا بميساء آقبيق وسمير نشار التساؤل عن أسباب اختلال العلاقة بين الريف والمدينة في الثورة السورية، حين لحقت المدينة بالريف، بدلا من أن يحدث العكس. لماذا حدث الاستثناء ولم تتحقق القاعدة؟ فقدت المدينة في سورية دورها الريادي، ليس لأن عملية ترييف تاريخية جرت للمدينة، بل لأن عملية الترييف هذه ما كان لها أن تأخذ هذا البعد، لولا انعدام القوى الاجتماعية. الاقتصادية. السياسية المدينية، أو ضعفها.

لم تعد المدينة، وتحديدا دمشق وحلب، تمتلكان أدوات القوة السياسية التي تخوّلهما الريادة، بعدما غادرت القوى الاقتصادية والسياسية البلاد، بعد عمليات التأميم السياسي والاقتصادي، وتحوّل طبقة الأعيان الموجودة إلى قوى زبائنية ريعية.

ولم تكن مصادفة أن مظاهرة الحريقة في منتصف مارس/ آذار 2011، كانت حالة منفردة لم تتحوّل إلى حالة عامة، وليس مصادفة أن تلغى مظاهرة ساحة سعدالله الجابري في حلب مطلع الثورة، في حين شهدت الساحة ذاتها في 19 أكتوبر/ تشرين الأول 2011 مظاهرة عارمة دعما للنظام.

تنبه عالم الاجتماع الألماني، جورج زيمل، إلى أن أفراد المدينة غالبا ما يتميزون بصفة الفردانية والنفعية، حيث يكون الفرد أكثر وعيا بذاته وأكثر حرية، لكنه، في الوقت نفسه، أضعف من ناحية العلاقة مع الآخر. .. في كل الأحوال، ثمة خلاف وتمايز بين الريف والمدينة، وليس المطلوب تقديم كلمات جميلة للموارية أو للاختباء وراءها بالقول إنه لا يوجد تمييز تفاضلي، سلبي أو إيجابي، بينهما كما ذهبت إلى ذلك الكاتب سميرة مبيض، فهذا لا يقدم إجابات موضوعية لهذه الإشكالية.

(كاتب وإعلامي سوري)

بلاغة الماضي لإسعاف المستقبل القاسي في المغرب

عبد الحميد اجماهيري

اختار ملك المغرب، في خطاب العرش قبل أيام، أن يعطي الكلمة للماضي الوطني المشترك بين الملكية والشعب وقواه السياسية، لكن قراءةً متأنيةً تكشف أنه لم يفعل ذلك نتيجة سطوة الحنين، بل من أن أجل أن يتكلم الماضي... عن المغرب اليوم، وعن المستقبل كما سيتضح من بنيات الخطاب، فقد غذّى محمد السادس خطابه بشحنةٍ وطنية، أعادت عيد العرش، الذي تم ترسيمه في نوفمبر/ تشرين الثاني 1933 عملا وطنيا ضد سلطات الحماية إلى جوهره الأصلي في التعبئة الوطنية حول الملكية، بعد أن كان قد قال بالحرف الواضح: «إن عواقب الأزمة الصحية (يقصد أزمة كوفيد) ستكون قاسية»، وهو إقرار بأن الوضع القادم سيفرض على المغاربة مضاعفة الجهود، وأكثر من ذلك الدخول في مغامرة تستعيد بها البلاد قوتها، من جزاء ما ينتظرها.

وفي استحضار الماضي في الحاضر تضمين للحاجة إلى تعبئةٍ شاملة لا تقل عن تعبئة الاستقلال، لحظةً كان قد سمّاها أول ملك يحتفل معه بعيد العرش، الراحل محمد الخامس، لحظة الجهاد الأصغر (الحرية) ثم الجهاد الأكبر (البناء). .. وقبل التدقيق في المقصود بذلك، لا بد من تسجيل ما يلي:

- إنها المرة الأولى الذي يتحدث فيها ملك المغرب عن الوضع في بلاده، منذ بداية الأزمة التي اجتاحت العالم، فهو فضل التحرّك في الميدان، بقوة رمزياته وشرعيات المؤسسة الملكية المتعدّدة، سواء أمير المؤمنين (تدبير الحقل الديني والإقناع بالقرارات التي اتخذتها البلاد في هذا الشأن)، أو قائدا عاما للجيش (بتعبئة الجيش والأطباء العسكريين واللوجيستيك المادي والعلمي للقوات المسلحة)، أو رئيس دولة، له دستوريا صلاحيات الإشراف على حسن سير المؤسسات، لمتابعة الوضع واتخاذ المبادرات. وقد كان المغرب ينتظر بالفعل قراءة الملك لحاضر البلاد في الأزمة، ثم توقعاتها الآنية والمستقبلية، ولا سيما أن المشاريع السياسية والمشاريع المضادة قد طغت في واحدةٍ من لحظات النقاش بشأن مآلات البلاد مع تدبير الجائحة، وكان الصمت في أعلى هرم الدولة يفتح تأويل وشهيات عديدة.

وفي أفق الانتظار هذا، أعلن محمد السادس أن المرحلة «القادمة ستكون قاسية». وأعلن، في الوقت ذاته، عن حزمة من الإجراءات التي تتجاوز الأفق السياسي المنظور إلى الدخول في «منعطف حاسم». وتمهيدا لهذا، تم عرض خريطة طريق واضحة ومرقمة ومجدولة في الزمن والطبقات، ومن ذلك:

■ الإعلان عن ضخ 021 مليار درهم (12 مليار دولار) في الاقتصاد الوطني، أي ما يعادل 11% من الناتج الداخلي الخام، وهو من أعلى الأرقام دوليا، بالحساب التناسبي، يخصّص للإقلاع الاقتصادي في سياق الجائحة الحالية.

■ إعطاء انطلاقة سد الخصاص الرهيب الذي سجلته البلاد من خلال قطاعاتها الاجتماعية، وهي معطياتٌ قاسية، كان العاهل المغربي ذاته قد نبّه إلى خطورتها، عندما أعلن، في السابق، عن عدم استفادة المقصيين والمهمشين وقطاعات شعبية واسعة من التحديث المادي والاقتصادي في البلاد، غير أن الجائحة منحت الأرقام قساوة أكبر. ومن ذلك كشفها عن حجم القطاع غير المهيكل؛ وضعف شبكات الحماية الاجتماعية، خصوصا بالنسبة للفئات الأكثر هشاشة، وارتباط عدد من القطاعات بالتقلبات الخارجية.

■ الإعلان عن عملية حازمة، لتعميم التغطية الاجتماعية لجميع المغاربة، خلال الخمس سنوات المقبلة، وتحديد الأول من يناير/ كانون الثاني 2021، وهي سنة انتخابية، لانطلاق تعميم التغطية الاجتماعية على كل المغاربة، بشكل تدريجي على مدى خمس سنوات، وهو ما يغطّي ولاية الحكومة المغربية المقبلة، من ألفها إلى يائها.

■ الدعوة إلى تعاقد وطني بين الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين، من أجل تجاوز الوضع الاجتماعي الصعب، وتعبئة الموارد البشرية لتجاوز الأزمة.

■ إصلاح عميق للقطاع العام، ومعالجة الاختلالات الهيكلية للمؤسسات والمقاولات العمومية، عبر وكالة وطنية، مهمتها التدبير الاستراتيجي لمساهمات الدولة، ومواكبة أداء المؤسسات العمومية.

■ ولعل فاكهة الحلوى، كما يقال، في تنبيه الملك إلى أن المرحلة المقبلة تتطلب تضافر جهود كل المغاربة لرفع تحدياتها «وبالتالي التوجه إلى كل القوى الوطنية دون استثناء، ومخاطبة روح الغيرة الوطنية، والمسؤولية الفردية والجماعية فيها، للانخراط القوي في الجهود الوطنية لتجاوز هذه المرحلة، ومواجهة تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية».

الواضح أن الخطة المعلنة من الملك تتجاوز الزمن الانتخابي الذي ستفتتحه البلاد، من أجل تدبير المرحلة المقبلة. والواضح أيضا أن البرنامج الذي ستشرع فيه هذه الحكومة، في بداية يناير/ كانون الثاني المقبل، هو برنامج الحكومة المقبلة، وهو ما يعطي ترتيبا لأولويات برنامجاتية، لا تباينات كبرى فيها بين القوى السياسية. وبمعنى آخر، هذا البرنامج الاجتماعي الوطني الاستراتيجي لا يمكن أن تختلف حوله الهيئات الحزبية، اللهم في جانبه المتعلق بالتدبير. والمغاربة الذين تابعوا الخطاب، أو المتتبعين المهتمين بالشأن المغربي، التقطوا هذه العودة إلى «نظام تاريخاني» (régime d'historicité)، بلغة المورخ فرانسوا هارتوغ، بالمعنى الذي يعنيه هذا النظام، أي «طرق تمفصل الماضي والحاضر والمستقبل». وإذا كانت الإحالة إلى البعد التاريخي تحضر في كل مناسبة، فإنها اكتست، هذه المرة، قوة لم تغفلها متابعة المواطنين، كما المتتبعين النبيهين، الخطاب، حيث افتتح برمزيات التاريخ، واختتم بها يوم 29 يوليو/ تموز.

يبدو من خلال التوطئة أن استنهاض الأبعاد الرمزية لتاريخية الحدث كانت من أجل التركيز على نقطة ارتكاز قوية، قامت عليها حياة المغرب الحديث، وهي قاعدة التعاقد الوطني الذي جدد للملكية وظيفتها التاريخية، بوصفها وظيفة تحرّرية، في وقتٍ كانت جل الملكيات قد انحازت إلى الاستعمار أو تعاملت معه. وفي الوقت ذاته، أبرز القاعدة السياسة التمثيلية للشعب المغربي، من خلال ممثلي الحركة الوطنية، وأولئك الذين سيشغلون كل لحظات الاستقلال بعنفها وعنفوانها، وصراعاتها السياسية وتناقضاتها، خصوصا أيام الملك الراحل الحسن الثاني بالأساس.

الواضح أن الشرط البرنامجاتي، لكل تنافس بين الأحزاب، ربما سيقل، إن لم نقل سيضعف بوجود برنامج اجتماعي اقتصادي يتخطّى الظرفية الآنية، إلى السنوات الخمس المقبلة، كما أن الشرط التنافسي سيترك المكان لشرط توافقي أكبر، تستوجبه متطلبات الحاضر وتخوفات المستقبل، كما تستدعيه قوة الماضي المشترك.

يضاف إلى ذلك أن الشرط الوطني العام، والذي يستنهض كل بلاغات الماضي، ووجدانياته، وكل قساوة المستقبل، يضع إطارا عاما لما يمكن أن نحدسه من خطاطات للخروج من الوضع، وفي قلبها التوافق الوطني الشامل (تعاقد وطني بناء، حسب توصيف العاهل المغربي) حول البرنامج المعلن في ظروف الجائحة.

سواء كمتن لغوي أو كبناء برنامجاتي أو كأفق سياسي، كان الخطاب الذي ألقاه محمد السادس يعلن عن منعطف حاسم، يشترك فيه المغاربة جميعا. ولعله أول أفق سياسي ذي طبيعة تدبيرية يتحقق فيه هذا الشرط بعد دستور 2011 الذي قام بترصيد مكتسبات التحولات الكبرى في مرحلة الربيع العربي وما قبلها من انتقالات العهد الجديد.

(كاتب مغربي)

> أعلن محمد السادس أن المرحلة «القادمة ستكون قاسية»، وأعلن عن إجراءات تتجاوز الأفق السياسي المنظور إلى الدخول في «منعطف حاسم»

> المرة الأولى الذي يتحدث فيها ملك المغرب عن الوضع في بلاده، منذ بداية أزمة كوفيد 19 التي اجتاحت العالم

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ سكرتير التحرير **حكيم عنكر** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads